المحاضرة التاسعة: الاتجاه الأركيولوجي(محمد أركون)

لقد أسس محمد أركون(1928 ـ 2010)مشروعاً ضخماً أطلق عليه مشروع نقد العقل الإسلامي، وقاد من أجل مشروعه معركة فكرية، هدف منها تفكيك المقدس واللامفكر فيه في التراث العربي والإسلامي، وممارسات العقل العربي والإسلاميفي الماضي والعقل الأوربي الحديث لتبيان التفاوت التاريخي فيما بينهما، من خلال تطبيق جميع المناهج والمصطلحات والعلوم الحديثة، ويحاول أركون أن يبتعد في مشروعه عن الانحياز لمذهب أو عقيدة ضد أخرى، لأنّ مشروعه كما يراه هو مشروع تاريخي وأنثروبولوجي في آنٍ معاً، ومهمّته إثارة الأسئلة لكلّ مرحلة من مراحل التاريخ، وعن علاقة مشروعه بالحداثة، فإنّه أراد أن ينشئ فكراً إسلامياً حداثياً له مرجعياته العلمية.

أولا: مفهوم العقل الإسلامي

إن التعريف الأساسي للعقل الذي ينطلق منه أركون هو التالي: العقل الإسلامي مثله مثل العقل اليهودي والعقل المسيحي، رغم الاختلافات العقائدية والشعائرية، هو عقل ديني لاهوتي، في مقابل العقل العلمي الفلسفي الحديث. إذن فالعقل الإسلامي في نظره ليس شيئا مطلقا وأبديا، وإنما هو صيغة من صيغ العقل، معنى ذلك أنه عقل تاريخي له بداية ونهاية، مثله مثل أي عقل يتشكل في التاريخ. كما حاول أركون في الكثير من الدراسات والبحوث أن يرد على الاعتراض التالي، الذي بدا له أساسيا وله أهميته، والذي يرى أن العقل إذا كان واحدا فينبغي أن لا يكون إسلاميا أو مسيحيا، بل ينبغي التعامل معه على أنه عقل نقدي، يسعى إلى المساءلة النقدية ويرفض الانغلاق داخل حدود أي دين أو طائفة أو مذهب، لأن وظيفة العقل هي الكشف الحر عن الظواهر والمسائل والقضايا، خارج نطاق هيمنة الأحكام المسبقة أو الأطر الطبقية عرقية كانت أم دينية، فالعقل البشري إذن واحد صالح للجميع وينطبق على الجميع: " لقد كانت الدعوة إلى عقل أزلي منسجم قبليا مع تعاليم الوحي دائما حاضرة، ليس فقط في مختلف مدارس الفكر الإسلامي، بل أيضا في اليهودية والمسيحية. فالإيمان بالمعطى الموحى به يعضد، وينير، ويرشد العقل البشري،

الذي إن ترك لحاله، لا يملك إلا أن يهيم على وجهه. لقد تم في الإسلام تعميم الاعتقاد بأصل إلهي للعقل يضمن التأصيل الأنطولوجي لعملياته".

ثانيا: مشروع محمد أركون (الإسلاميات التطبيقية)

لقد هدف محمد أركون إلى بناء "إسلاميات تطبيقية" و ذلك بمحاولة تطبيق المنهجيات العلمية على القرآن الكريم، و من ضمنها تلك التي طبقت على النصوص المسيحية، و هي التي أخضعت النص الديني لمحك النقد التاريخي المقارن و التحليل الألسني التفكيكي و للتأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى و توسعاته و تحولاته.

و قد طرح أركون هذا المشروع في الدراسات الإسلامية لكي يهتم به الباحثون العرب و المسلمون عموما، لاسيما و هو مشروع متصل بالبحث في النص الديني بصفة عامة،إنه مشروع مبني بالأساس على التعرف على الظاهرة الدينية حتى تحل الظاهرة الدينية في أفق أوسع من الأفق الإسلامي، لاسيما و أنه يتم الاكتفاء بالنظر إلى تاريخ الإسلام كدين،أي كإطار فكري دون مراعاة ما حدث و ما يحدث في الأديان الأخرى.

و مشروع أركون يفتح بابا أوسع لتاريخ الأديان إذا انطلقنا من القرآن و من منطقه الذي يطرح قضية تاريخ النجاة، أي كيف نعيش حياتنا كمؤمنين متلقين كلام الله تعالى حتى نطبقه في حياتنا قصد النجاة من العذاب ؟ و معلوم أن فكرة النجاة موجودة في التوراة مع موسى و الأنبياء الذين ذكرهم القرآن، و هذا يدعونا إلى الاهتمام بالتاريخ الروحاني الذي يختلف عن التاريخ السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي،فالتاريخ الروحاني يتعلق بوجوب كلام الله على البشر.

و يؤكد محمد أركون أن المسلمين مازالوا لم يمارسوا بعد تاريخ الأديان، لأنه غير موجود لديهم، كما يشير إلى أن ما كتبه الشهرستاني عن الملل و النحل، و ما كتبه ابن حزم عن الملل و النحل تخلى و أعرض عنه المسلمون، إذ ركزوا كثيرا على ما ورد في تاريخ الإسلام أكثر مما ركزوا على ما ورد في القرآن نفسه. فهناك حسب أركون فرق بين القرآن الذي هو كلام الله و نزل إلى الجميع، و ما قام به الفقهاء المسلمون من جهد نعتمد عليه لفهم الإسلام، و هو بطبيعة الحال فهم متغير

حسب الظروف التاريخية و الظروف الثقافية في المجتمع، و خاضع أيضا للقوة السياسية العاملة في المجتمع.

ويركز محمد أركون على ضرورة تفهم القرآن-كلام الله- و الذي يفتح للبشر – وللمؤمنين بالخصوص- آفاقا للتدبر و التفكر و التفقه و التعقل، فكم من مرة تكررت "أفلا تتدبرون" و "أفلا تعقلون" في القرآن الكريم؟ لكن هذا النوع من التفكير المتوسع تم تهميشه و ضيقت مجالاته.

و عبر منهجه تمكن أركون من تكوين فكرة دقيقة عن تطور تاريخ الإسلام، و في هذا الصدد يقر أركون بوجود مذاهب متعددة ظهرت في الإسلام أثناء تاريخ الدولة الأموية و الدولة العباسية،و هناك حرية منحت في أوائل الإسلام (في القرون الأربعة الأولى من الهجرة)، حيث كان المسلمون يتمتعون بحظ لا بأس به من حرية التفكير وحرية المناظرة، و بفضل هذا تعددت المواقف الفكرية،وتكونت مذاهب عديدة في علم الكلام و في الفقه و غيرها من العلوم، لأن القرآن الكريم مفعم بمعان لا يمكن تحديدها في اتجاه واحد فقط، ثم أن هذه المذاهب تطورت في ظروف سياسية، و السياسة دائما تلعب دورها في توجيه البحث في الأمور الدينية، لأن الدولة اهتمت دائما بالدين حتى تستمد منها مشروعيتها كسلطات، و قد أنتج هذا الاستعمال السياسي للجانب الديني مشاكل عديدة، و هذه المشاكل يجب أخذها بعين الاعتبار و إخضاعها للدراسة، لاسيما فيما يتعلق بالتطرف لمعرفة كيف و تحت أي سيطرة أصبحت بعض المذاهب متطرفة و منفصلة.

ثالثا: مسألة المعرفة

فيما يخص مسألة المعرفة يقابل محمد أركون بين موقفين:**الأول** ينظر إلى الوراء صوب العصور الوسطى و يدافع عن القيم الروحية لتلك العصور. و **الثاني** يحاول استخراج الدروس و العبر من الثورة الإبستمولوجية الحاصلة مع الثورة الفرنسية.

و بالنسبة لهذا الموقف الأخير هناك قطيعة أحدثتها هذه الثورة، و تلك القطيعة ذات طبيعة سياسية بالأساس. فالثورة الفرنسية حدث سياسي ذو طبيعة إبستمولوجية في نظر محمد أركون، و القطيعة السياسية تحققت بعد تحقيق القطيعة المعرفية.

ففي نظره أن تحرير الشرط البشري مسألة حديثة العهد رغم وجود بعض العناصر و البذور في التراث الإسلامي و باقي المتوارثات التوحيدية. فأنظمة الفكر لها تاريخ و صيرورة، و لها انطلاقة و منشأ و مسيرة تطور و صيرورة تغيير نحو التقدم أو الانحطاط و الاحتضار، و هذا قانون الحياة و الكون. و المطالبة بإعادة قراءة النصوص الدينية الأساسية من الارتكاز عليها، لا يعني في نظر محمد أركون الاستخفاف بتجارب و عبقرية السلف أو إهمال تعاليم النصوص الكبرى و جهود المفسرين، و إنما ما يجب التوق إليه من إعادة القراءة هاته هو الأخذ بعين الاعتبار مسألة التغيير الحاصل في مجال المعرفة البشرية و التاريخ البشري.

و يعتبر محمد أركون أنه لا يمكن نكران وجود مواجهة حاصلة بين النصوص الكبرى التي تبدو متعالية لا تتغير و لا تتبدل و بين التاريخ البشري المتغير و المتبدل بطبيعته. و لعل من أبرز وجوه هذه المواجهة أن الفكر الإسلامي السائد حاليا يرفض كل تاريخية،إنه في نظر أركون لا يزال يكذب التاريخ و الواقع رافضا أن يأخذهما بعين الاعتبار حيث يقف متعاليا عن الواقع. ففي نظر محمد أركون لا يجب الاكتفاء بالنظر إلى الدين فقط في مبادئه السامية و العالية، و إنما وجب النظر أيضا إلى التاريخ و كيف تم تطبيق الدين؟ و كيف تم فهمه؟ و كيف تمت ممارسته؟

رابعا: معرفة الغرب بالإسلام

يتساءل محمد أركون: هل يمكن التحدث عن وجود معرفة علمية عن الإسلام في الغرب؟ و يعتبر هذا التساؤل بمثابة تساؤل عن صلاحية و موضوعية في النظرة المتوفرة للغرب عن الإسلام،فلا يخفى على أحد أن الحداثة التي عرفها العالم مؤخرا قد مست بشكل أو بآخر ببعض المصالح الحيوية للغرب في جملة من مناطق العالم، و كانت و لا تزال ردود الفعل التي تثيرها قد أنعشت المتخيل الغربي السلبي على الإسلام و ضخمته أكثر من أي وقت مضى، و هذا المتخيل الغربي المُشكّل تجاه الإسلام تغذى منذ خمسينات القرن الماضي من قوة و هيمنة الإعلام، لاسيما بسبب تلاحق الأحداث العنيفة لحركات التحرر الوطني و الحركات الاحتجاجية و التمردية السائدة في المجتمعات الإسلامية آنذاك.

لقد حصل خلط خطير في تشكيل المتخيل الغربي عن الإسلام، خصوصا و أن كل المشاكل ذات الجوهر السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي ألحقت جميعها بالإسلام، و هكذا راح الخلط بين الإسلام كدين، و الإسلام كإطار تاريخي لبلورة ثقافة و حضارة معينة يتأبد و يتعقد أو يتشعب.

و في هذا الصدد ركز محمد أركون على ضرورة فهم المأساة التاريخية التي تتخبط فيها الشعوب الإسلامية منذ أن اصطدمت بشكل مفاجئ و عنيف بالحضارة المادية و الحداثة العقلية، فلا الثورة الاشتراكية و لا الثورة الإسلامية أتيح لهما أن تحضيا بمرحلة تحضير و استعداد كافية كما حصل للثورة الفرنسية في القرن 18، إذ لم يمهد لهما عن طريق حركة ضخمة من النقد الفلسفي و العلمي للتراث الديني،ونقد الممارسة السياسية لأنظمة الثقافة الموروثة و لمشكلة المعرفة بشكل عام، و بذلك تراكم اللامفكر فيه في الفكر الإسلامي و العربي.

في حين أن الغرب كان قد انخرط منذ ستينات القرن الماضي في عملية البحث عن أشكال جديدة للحداثة، آنذاك فعل العالم الإسلامي العكس أدار ظهره للحداثة، بل دخل في مرحلة استخدام الإسلام كأداة لتمويه التصرفات و المؤسسات و النشاطات الثقافية و التعليمية المستلهمة من قبل النموذج الغربي.

خامسا:العلمانية و الإسلام

يعتبر محمد أركون أن العلمانية مشروع أفرزته المجتمعات الغربية، و بواسطتها انتقل المجتمع الغربي إلى التقدم و الحداثة، و العلمانية في تصور أركون لا تعني القضاء على الدين و إنما وضع حد للغزو الذي يقوم به الخطاب العقائدي للمجتمع، و يرجع أركون أسباب نجاح العلمانية في الغرب إلى ثلاثة أمور: **أولا:** القطيعات الحاصلة في نظام الفكر.**ثانيا:** دور الطبقة البرجوازية التجارية.**ثالثا:** الثورة الماركسية–اللينينية التي قامت ضد الطوائف الدينية. و قد حسم الأمر في الغرب باتخاذ منحى نضالي ضد رجال الدين و السلطة الدينية، و كانت مغالاة في العلمانية إلى درجة استبعاد الدور الديني.

ويرى محمد أركون أن العلمانية و الحرية مفهومان مرادفان،وأن الإسلام بذاته ليس مغلقا في وجه العلمانية،حيث شهدت المجتمعات الإسلامية في نظرهتجارب علمانية عبر التاريخ،فقد عرفت القرون الأربعة الأولى للهجرة حركة ثقافية مهمة استطاعت الخروج على القيود التي فرضتها السلطة الدينية.فالمعتزلة عالجوا مسائل فكرية أساسية انطلاقا من ثقافتهم المزدوجة المرتكزة على الوحي الإسلامي و الفكر اليوناني، كما أدخل المعتزلة بعدا ثقافيا و لغويا في طريقة طرحهم مسألة خلق القرآن و اعترفوا بمسؤولية العقل و دوره في فهم النص الموحى به و امتلاكه، إلا أن الأمر آنذاك حسم لصالح الخط الأشعري الممثل للخط الرسمي.

و يرى أركون أن المجتمع الإسلامي عرف العلمانية قبل المعتزلة عندما استولى معاوية على السلطة السياسية، و بعد انتصاره خلع عليه رجال الدين رداء الشرعية الدينية، و بذلك تشكلت ايديولوجيا التدبير التي تعطي للحاكم الحق في كل شيء باسم الدين.و يؤكد أركون أن هذا الأمر ليس إلا عملا واقعيا لا علاقة له بأية شرعية غير شرعية القوة، كما يقر على أن ما يشاع من أن الإسلام لم يعرف التفريق بين الدين و الدنيا (أو بين الروحي و الزمني) قول خاطئ.و في هذا الصدد يتأسف أركون لكون المجتمعات الإسلامية و العربية لا تزال في عموميتها ترفض العلمانية و تجهل معناها الايجابي، و بذلك يتم قمع بشكل أو بآخر كل من حاول اتخاذ موقف حر متفتح على المعرفة و ذلك منذ المعتزلة إلى ابن رشد إلى يومنا هذا.